مجلة العلوم والبحوث الإسلامية
SUST Journal of Islamic science and Research
Available at:http://scientific-journal.sustech.edu/

الخَصَائِصُ التَرْكِيبِيَّةُ لِدُعَاءِ نَبِيِّ اللَّهِ نُوحٍ (عليه السلام) فِي القُرْآنِ الكَرِيمِ

مجدي إبراهيم محمد صافي[1] – محمد داؤود محمد[2]

المستخلص:

يتناول هذا البحث الدَّلالة التَّركيبيَّة، المستفادة من أساليب بناء الجمل، ذكرًا، وحذفًا، وإظهارًا، وإضمارًا، وتقديمًا، وتأخيرًا، ووصلًا، وفصلًا، ممَّا له تأثير في تغيُّر المعنى الوظيفيّ؛ هادفًا إلى بيان ما يُستفاد من هذه الأساليب من تأثير في الدَّلالة، ناشدًا تكامل الدَّلالة المعجميَّة، والسِّياقيَّة مع إحدى أهمِّ الدَّلالات الوظيفيَّة، وهي الدَّلالة النَّحويَّة التي لا تكتمل هيئة الدَّلالة من غيرها، متَّبعًا في ذلك المنهج الوصفي، وبعض أدواته كالاستقراء، والتَّحليل، والملاحظة، وفي ختام هذا البحث أهمُّ نتائجه، ومنها: أنَّ الحذف أشيع من الذِّكر في دعاء نوح، ولم يرد الفصل إلَّا نادرًا، ومحافظته على الرُّتبة النَّحويَّة؛ لعدم وجود ما يستلزم الخروج عنها.

ABSTRACT:

This research deals with structural denotation, which is learned from the methods of constructing sentences such as the mention, deletion, embodiment, atrophy, bringing forward, backwardness, connection, and disconnection, which have an effect on changing the functional denotation. However, it aims at demonstrating the benefit of these methods of influence on the meaning, appealing for the integration of literal and contextualization denotation with one of the most important functional denotation, which is the grammatical semantic, that the denotative structure is incomplete without it. The study uses the descriptive approach, and some of its tools such as induction, analysis and observation. Finally, the study concludes that the deletion is more common than the mention in the prayer of Noah, and the disconnection was rarely used, and its preservation on the grammatical level, because there is no need to depart from it.

الكلمات المفتاحيَّة:

المعنى الوظيفيُّ – الدَّلالة النَّحويَّة – الذِّكر والحذف – الإظهار والإضمار

1- قسم اللغة العربية- كلية اللغات- جامعة السودان للعلوم والتكنولوجيا

2- قسم اللغة العربية- كلية اللغات- جامعة السودان للعلوم والتكنولوجيا

المقدّمة:

إنَّ دراسةَ خصائصِ التَّراكيبِ لها ثمرة عظيمة؛ إذ إنَّ الدَّلالة النَّحويَّة المأخوذة من اختلاف التَّراكيب النَّحويَّة تمثِّل إحدى الدَّلالات الوظيفيَّة المهمَّة التي لا يكتمل المعنى إلَّا باستصحابها، مقرونة بالدَّلالتين: الصَّرفيَّة، والمعجميَّة، مع ربط ذلك بالسِّياق، والمقام، وقد لاحظنا أنَّ جُمَلَ دعاء نوح (صلَّى الله عليه وسلَّم) لها تأثير بياني بالغ في النَّفس؛ بما فيها من مزايا تركيبيَّة، وتنوُّع في التَّعبير –على قلَّة مواضعها في القرآن– ومن هنا رأينا أن ندرس هذه الخصائص التَّركيبيَّة؛ لبيان ما ينتج عن ذلك من اختلاف في الدَّلالة الوظيفيَّة، مع ربط ذلك بالدَّلالة المعجميَّة، نَاشِدَيْنِ تبيين ما هو كامن في هذه التَّراكيب، آمِلَيْنِ الاستفادة من مناهج علم اللُّغة الحديث في تحليل الجمل، غير غافلَيْنِ عن نتائج علم المعاني العربيّ، ونظرته العميقة للدَّلالة النَّحويَّة، ولعلَّ ذلك يسهم في فهمٍ أعمقَ للقرآنِ الكريمِ.

مشكلة البحث:

تتمثَّل مشكلة البحث في محاولة إيجاد جواب عن السُّؤال المركَّب الآتي:

ما خصائص تركيب الجمل في دعاء نوح في القرآن الكريم؟ وما تأثير ذلك في دلالة هذه الجمل؟

أهداف البحث:

يهدف البحث إلى:

1. بيان أنواع التَّراكيب النَّحويَّة في دعاء نوح (عليه السَّلام) في القرآن الكريم، وإدراك خصائصها.
2. إيضاح الدَّلالات النَّحويَّة المستفادة من تنوُّع بناء الجملة في دعاء نوح في القرآن الكريم.
3. توضيح أثر الدَّلالة النَّحويَّة في تحقيق التَّكامل الدَّلاليّ، والنَّصّيّ.

منهج البحث:

يتَّبع هذا البحث المنهج الوصفي، القائم على التَّحليل، والاستقراء التَّامّ، والملاحظة، ويتوقَّف في حدوده عند الآيات التي ورد فيها دعاء صريح على رواية حفص عن عاصم.

الدِّراسات السَّابقة:

هناك دراسات متعدِّدة، ومتنوِّعة في مجال خصائص التَّراكيب، ودلالاتها، منها ما يلتقي مع هذا البحث في محور، أو أكثر، فمن ذلك دراسة عثمان إبراهيم يحيى بعنوان (بناء الجملة البسيطة في ديوان نار المجاذيب – دراسة نحويَّة دلاليَّة)، وما يجمع بين الدِّراستين تناولهما أساليب بناء الجملة، وتأثيرها في الدَّلالة، على اختلاف بينهما في المنهج، والأهداف، والنَّتائج، وهناك دراسة أخرى لصالحة عامر حامد بعنوان: (الدَّلالة النَّحويَّة في خطاب بني إسرائيل لأنبيائهم)، ويجمع بينهما تناول هندسة الجملة، وأساليب رصف الكلمات فيها، مع ربط ذلك بالدَّلالة، ومن ذلك دراسة للمؤلِّف الأوَّل لهذا البحث بعنوان: (أوصاف الأنبياء في القرآن الكريم – دراسة صرفيَّة دلاليَّة)، ووجه التَّعلُّق تناول كليهما لمسألة تتعلَّقبالأنبياء، كما يشتركان في تناول كلٍّ منهما وجهًا من وجوه الدَّلالة الوظيفيَّة.

التَّراكيبُ النَّحويَّةُ لِدعاءِ نُوحٍ فِي القُرآن الكَرِيم وَدَلالاتُها:

من المعلوم أنَّ الكلام لا يتأتَّى تصوُّره من غير إدراك المعاني النَّحويَّة المستثمرة من التَّراكيب بمجرَّد معرفة الدَّلالات المعجميَّة للألفاظ ما لم تُضمَّ إليها معاني النَّحو، والسِّياق؛ يقول عبد القاهر الجرجانيُّ: "وممَّا ينبغي أن يعلمه الإنسان، ويجعله على ذكر أنَّه لا يُتصوَّر أن يتعلَّق الفكر بمعاني الكلم، مجرَّدة عن معاني النَّحو"؛[1] وتأسيسًا على ذلك جاءت هذه الدِّراسة لتجلِّي الخصائص التَّركيبيَّة لدعاء نوح في القرآن الكريم، وذلك في المحاور الآتية:

المحور الأوَّل– الذكر والحذف والإظهار والإضمار ودلالاتها في دعاء نوح في القرآن الكريم:

ممَّا هو مقرَّر أنَّ الذي يحدِّد جودة الذكر، أو مناسبة الحذف هو المقام، والسِّياق، وحال المتلقِّي، واستعداده

(1) الجرجانيُّ، عبد القاهر بن عبد الرَّحمن(2001م) دلائل الإعجاز في علم المعاني، تحقيق: هنداوي، عبد الحميد، ط1، دار الكتب العلميَّة، لبنان، ص 261.

اللُّغويّ، وغير اللُّغويّ،[2] فليس للذِّكر مزيَّة مطلقة على الحذف، وليس للحذف فضل مطلق على الذِّكر، وقد اشتمل دعاء نوح على الأمرين على حسبالسِّياق، والمقام.

قال الله تعالى، حاكيًا عن نوح: ﴿ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾،[3] وقد اشتمل هذا الدُّعاء على ذِكر وهو إيراد المصدر المؤكِّد لفعله، ومقام الدَّعاء من مقامات الإطناب؛ لما في ذلك من إظهار التَّذلُّل لله تعالى؛ ولما فيه من حلاوة مناجاته سبحانه وإطالة المحادثة معه؛ وقد عبَّر نوح (عليه السَّلام) بهذا الأسلوب لتأكيد المعنى الذي يصبو إلى تبيينه؛ إذ هو مؤتمن على أداء الرِّسالة فأراد أن يعتذر إلى الله تعالى بأنَّه قام بما عليه تامًّا، واتخذ هذه السُّبل المختلفة لإبلاغ الرِّسالة، فعسى الله أن يعذره، وينتقم من قومه، بعد إقامة الحجَّة عليهم.

وقد يُشعر بنوع حذف في قوله: (أعلنت، وأسررت)؛ فكأنَّ كلًّا منهما يطلب مفعولًا به، ولكنَّهما يُستعملان لازمَين، ومتعدِّيين،[4] فإذا كانا لازمين فلا حذفَ؛ فكلاهما استوفى فاعله، ووصل إلى المفعول -معنى- بوساطة أداة الجرِّ، واستعمل نوح الإضمار بتعبيره بالضَّمير (الياء، والتَّاء) في (أسررتُ، وأعلنتُ)؛ لأنَّ الموضع موضع إضمار، ولا مقتضى للإظهار هنا.

وكانت مراتب دعوته على ثلاث مراحل: الأولى- المناصحة سرًّا، والثَّانية- المجاهرة، والثَّالثة- الجمع بين الإسرار، والمجاهرة،[5] وهو أبلغها، والأصل أنَّ الإسرار يكون قبل الإعلان، ولكن لا ضير في تقديمه عليه هنا؛ فالواو لا تفيد ترتيبًا، وإنَّما دلالتها مجرَّد الجمع بين المعطوف، والمعطوف عليه[6] في اللَّفظ، والحُكم،[7] من غير أن يكون المبدوء به داخلًا في الحُكم قبل الآخر، ولا أن يجتمعا في وقت واحد، بل الأمران جائزان، وعكسهما جائز،[8] ثمَّ إنَّ الجانب اللَّفظيّ يقتضي هذا التَّقديم؛ لأنَّ المحافظة على الفاصلة القرآنيَّة مطلب قرآنيّ جليل، وأسلوب عربيّ مؤثِّر ما لم يكتنفه التَّكلُّف.

ثمَّ يقول: (وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا)،[9] ولو قال نوح: (ومكروا) لكانت الجملة تامَّةً، لكن جاء بالمصدر، وصفته؛ لتقوية المعنى، وتأكيده من جهة ذكر المصدر (مكرًا)، ولبيان نوع الفعل من جهة ذكر الصِّفة (كبَّارًا)، وذكر النَّوع هُنا يتناسقمع سياق التَّوكيد؛ إذ إنَّ وصف المكر بهذه الصِّفة التي تدلُّ على عظمه ضرب من ضروب التَّوكيد؛ فصيغ المبالغة من أساليب التَّوكيد.

وقد آثر نوح الإضمار في هذا الموضع، فاستعمل الضَّمير في (مكروا) بدلًا من (قومي)؛ لأنَّ الضَّمير أخصر، ثمَّ إنَّه

---

(2) القزوينيّ، محمَّد بن عبد الرَّحمن(د.ت) الإيضاح في علوم البلاغة (المعاني والبيان والبديع)، دار الكتب العلميَّة، بيروت، لبنان، ، ص38-39.

(3) سورة نوح، الآية 9.

(4) ابن منظور، محمَّد بن مكرم الأنصاريّ(2009م) لسان العرب، مادَّة (ع ل ن)، ومادَّة (س ر ر) تحقيق: عامر أحمد حيدر، دار الكتب العلميَّة، بيروت، لبنان.

(5) الرَّازيُّ، محمَّد بن عمر(1994م) التَّفسير الكبير، دار الفكر للطباعة، والنَّشر، والتَّوزيع، بيروت، لبنان، ص137-138.

(6) الأنصاريّ، ابن هشام(1998م) مغني اللَّبيب عن كتب الأعاريب، ط1، دار الفكر للطِّباعة، والنَّشر، والتَّوزيع، بيروت، لبنان، ص343.

(7) الحمد، علي توفيق، والزّعبي، يوسف جميل(1993م) المعجم الوافي في أدوات النَّحو العربيّ، دار الأمل، إربد، الأردن، ص 349.

(8) سنّو، أهيف، وآخرون(2010م) موسوعة مصطلحات العلوم النَّحويَّة، مكتبة لبنان ناشرون، ط1، بيروت، لبنان، ، ، ص 3557.

(9) سورة نوح، الآية 22.

خاطبهم بالقوميَّة في دعوته لهم (يا قومِ)؛ لأنَّ مقام االدَّعوة مقام استعطاف، أمَّا في مقام الدُّعاء فاستعمل الضَّمير؛ لأنَّ المقام لشكوى، واستنزال للعقاب، ولم يضفهم إلى نفسه كما في المقام الأوَّل، فكأنَّ في ذلك نوعَ براءة منهم.

والمعنى: مكروا مكرًا كبيرًا، و(كُبَّار) منتهى المبالغة من (الكِبْر)، وإنَّما وُصف هذا المكر بصفة (فُعَّال) لعظمه؛ فقد أضافوا الألوهيَّة لغير الله؛ إيذانًا بأنَّ عبادتها سائغة، وهذه حيلة خفيَّة لِتَزيين عملهم.[10]

ويقول الله تعالى:﴿ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾[11] وفي سياق هذا الدُّعاء ذِكر؛ حيث عطف الخاص على العام؛ إذ إنَّ لفظ (آلهتكم) عام يشمل المنصوص عليه، ولكنَّه نصَّ على هذه المذكورة؛ لخطرها، ولمكانتها عندهم، وإنَّما استُحسن الذِّكر هنا لأنَّ المقام مقام تخصيص للمذكور؛ لأنَّ ذكر الخاص بعد العام يدلُّ على أهميَّة الخاص؛ لأنَّه ذُكر مرتين: مجملًا؛ لكونه داخلًا في أفراد المجمل، ومفصَّلًا بعد الإفراد.

وجاء بالإضمار في (قالوا)، للإيجاز، والتَّحقير؛ فكأنَّ قومه لا يستحقُّون أكثر من إشارة إليهم بالضَّمير.

وهنا يحكي نوع مقالة قومه في معرض دعائه ربَّه، ومناشدته إيَّاه، أي قالوا: لا تتركوا آلهتكم، ولا سيّما المشهورة منها ممَّا نُصَّ عليه.[12]

ويقول تعالى:(قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا)،[13] وهنا جاء الإضمارفي كلام نوح على الأصل؛ فاستعمل الضمير عند تعبيره عن نفسه (إنِّي)، و(دعوتُ)؛ لأنَّه مخبر عن نفسه؛ وهذا المقام من أعظم مقامات التَّواضع؛ فالإضمار سائغ فيه، واستعمل الاسم الظَّاهر للتعبير عن قومه (قومي)؛ فكأنَّ في ذلك بيانًا لصدق دعوته؛ لأنَّهم قومه، فدعاهم دعاء المستشعر لانتمائه إليهم، وانتمائهم إليه.

وفي الآية حذفما دعاهم إليه؛ لكونه معلومًا من ذكره في أوَّل السُّورة: ﴿ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾.[14]

وهنا يشكو إلى الله موقنًا بأنَّ الله عالم بحاله، وحال قومه، ويقول: إنَّه قد دعا قومه في الأوقات كلِّها من غير فتور، ولا تعطيل في وقت.[15]

يقول: ﴿ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا﴾[16] وفي قوله: (فرارًا) حذف؛ إذ لم يذكر ما يفرُّون منه؛ لكونه معلومًا من السِّياق، أي: فرارًا ممَّا دعوتُهم إليه من عبادتك، وتقواك، وطاعتي، وفيه حذف ما دعاهم إليه؛ لكونه معلومًا.

واستعمل نوح أسلوب الإضمار في قوله: (يزدهم)؛ لأنَّه على الأصل، فالموضع موضع إضمار بعد تقدّم ذكر الاسم، وجاء الإضمار في (دعائي)؛ إذ لا وجه للإظهار.

(10) الرَّازي، التَّفسير الكبير، مرجع سابق، ص142-143.

(11) سورة نوح، الآية (23).

(12) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز، مرجع سابق، ص376.

(13) سورة نوح، الآية (5).

(14) سورة نوح، الآية(3).

(15) أبو حيَّان، محمَّد بن يوسف الأندلسيّ(2001م) تفسير البحر المحيط، تحقيق: عبد الموجود، عادل أحمد، وآخرون، ج8، دار الكتب العلميَّة، بيروت – لبنان، ص332.

(16) سورة نوح، الآية (6).

وجعل دعوته إيَّاهم سببًا للإعراض؛[17] فمن لم ينقد إلى آيات الله فلا تزيده إلَّا رجسًا.

وقال تعالى: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾،[18] وفي هذه الآية حذف أداة النِّداء؛ فالتَّقدير (يَا ربّ)، والمقام يقتضي الإسراع شفقةً على ابنه الذي لا يدري ما مآله، فاقتضى ذلك أن يستغني عن كلِّ ما يسوغ حذفه، ثمَّ إنَّ اللُّغة العربيَّة من سننها أنها تحذف ما يكثر استعماله تسهيلًا، والغالب في القرآن أنَّ نداء الرَّبّ سبحانه وتعالى بلفظ الرُّبوبيَّة يأتي مجرَّدًا عن أداة النِّداء، وقد يكون هذا الحذف بسبب التَّعجيل بذكر المحبوب؛ فالنَّفس تطمئنُّ بذكر اسمه؛ فتتخلَّص من كلِّ ما يحول بينها، وبينه، وممَّا يقتضي حذف أداة النِّداء في هذه الآية أنَّ استعمال أداة النِّداء فيه شيء من التَّنبيه، والتَّنبيه إنَّما يستعمل –عادة– للبعيد، أو الغافل، أو الغبيّ، أو السَّاهي، والله تعالى منزَّه عن ذلك كلِّه؛ فناسب أن يكون غالب دعائه في القرآن غير مقترن بأداة النِّداء الدَّالة على ذلك.

ومن الحذف في هذه الآية حذف ياء المتكلِّم من لفظ (ربِّ)؛ إذ إنَّ أصلها (ربِّي)، ولا يخفى ما في حذفها من تخفيف اللَّفظ فكان حذفها مناسبًا خاصَّةً مع بقاء الكسرة دلالة عليها، وهذا الحذف مضطَّرد في دعاء نوح والقرآن.

ويُلاحظ أنَّ نوحًا لم يصرِّح بمسألته، وفضَّل عرض حاله وضعفه على ربِّه (إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي)، وأن يمجِّده ويثني عليه ﴿ وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ ؛ لأنَّه من أعظم التَّوسُّل أن تعرض حالك تمسكنًا، وتذلُّلًا، وتثني على الله تعظيمًا، وتقديسًا، ونظير هذا دعاء زكريا في قوله: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾،[19] وقول ذي النُّون: ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾،[20] فالبنية السطحيَّة في مثل هذه الجمل تقود بالسِّياق، والمقام إلى جمل أخرى في البنية العميقة؛ فالدَّلالة، والمقام يخطِّطان التَّراكيب النَّحويَّة.

ويُلاحظ أنَّ المستعمل في الموضع السَّابق من دعائه هو الإضمار؛ إذ لا وجه للإظهار.

وهذه الجملة معطوفة على ما قبلها دون ترتيب؛ لأنَّ الأظهر أنَّ هذا الدُّعاء كان قبل غرق الابن،[21] وقديكون بعد الغرق، وعلى ذلك فالأنبياء يعلمون أنَّ الله على كلِّ شيء قدير، وأنَّه لن يخلف وعده؛ فسأله بعد الإغراق، ويدعو ربَّه، ويستعلمه عن حال ولده، فقال: ﴿رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾، وقد وعدتَّني بإنجاء أهلي، ووعدك الحقُّ، فكيف غرق؟! وأنت أحكم الحاكمين، فكان الردُّ من الله تعالى بأنَّ هذا الولد ممَّن سبق عليه القول؛ لكفره.[22]

ثمَّ يأتي دعاء نوح بعد أن أفتاه الله في مسألته، ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾،[23] وفي ذلك إنابة من نوح، واستغفار، وتسليم لأمر الله تعالى؛ وطلب ملح أن يعفو الله عنه؛ أن سأله شيئًا ممَّا خفي وجه الحكمة فيه للعبد،[24] فجمع هذا الدُّعاء بين الاستعاذة، والاعتراف بالنَّقص، والاستغفار، وإثبات كمال الحكمة لله تعالى.

ويتصدَّر الآيةَ حذفُ أداة النِّداء من لفظ (ربّ)، وحذف ياء المتكلِّم تخفيفًا، وقد بيَّنا دلالات ذلك، وأغراضه في الفقرة السَّابقة، ومن الحذف في هذه الآية حذف المفعول به؛ لأنَّ الفعل (تغفر) يحتاج إلى مفعول به، ونرى أنَّ

(17) أبو حيَّان، البحر المحيط، مرجع سابق، ص332.
(18) سورة هود، الآية (45).
(19) سورة مريم، الآية (4).
(20) سورة الأنبياء، الآية (87).
(21) ابن عطيَّة، عبد الحق بن غالب الأندلسيّ، المحرَّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عبد السَّلام عبد الشَّافي، ط1، ج3، محمَّد، دار الكتب العلميَّة، بيروت لبنان، ص176.
(22) القرطبي، محمَّد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن، ص227.
(23) سورة هود، الآية47.
(24) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز، مرجع سابق، ص178.

حذف المفعول به هنا لإفادة التَّعميم؛ حتَّى يكون الغفران شاملًا لما يعلمه، وما لا يعلمه، كما يظهر أنَّ كمال الأدب مع الله دعاه إلى الإعراض عن كلمة (ذنوبي)؛ لعدم مناسبتها في خطاب الملك العظيم سبحانه،والأصل في ذلك قول ابن مالك:

وحذف ما يُعلم جائز كما
تقول: زيدٌ بعد من عندكما[25]

ومن حذف ياء المتكلِّم في دعاء نوح قول الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾؛[26] أي: انصرني عليهم بإهلاكهم؛ لتكذيبهم؛ فالباء للسببيَّة، أو البدليَّة؛ أي: بدل تكذيبهم إيَّاي، ويجوز أن تكون الباء آليَّة؛ و(ما) موصولة بمعنى: انصرني بالذي كذَّبوني به، وهو العذاب الذي وعدتَّهم إيَّاه، وعلى هذا التَّفسير الأخير فلا يخفى ما في التَّعبير من الحذف، وعلى غيره فالحذف بادٍ: فـ (كَذَّبُونِ)، فيها ضمير محذوف عُوِّضَ عنه بالكسرة على النُّون، والتَّقدير (كذَّبوني)، ومن الحذف الذي في هذه الآية حذف أداة الجرِّ، والمجرور بها؛ لأنَّ (نَصَرَ) لا يتعدَّى –عادةً– إلَّا بأداة الجرِّ (على)؛[27] فالمقدَّر: (انصُرْنِي عَلَيْهِمْ بِمَا كَذَّبُونِي)، فحُذف الجارُّ، والمجرور؛ لكونهما معلومين، وممَّا حُذف من هذه الآية الأداة (مِنْ) لأنَّ الفعل (أسأل) إنَّما يتعدَّى بوساطة حرف جرٍّ، ، كما في قوله تعالى: ﴿أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾،[28] والتَّقدير: (أعوذ بك من أن أسألك ...)، ويكون المصدر المؤوَّل من حرف المصدريَّة، والفعل بعده في محلِّ نصب بنزع الخافض.

وممَّا يأتي في سياق الحذف في دعاء نوح قول الله تعالى: ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾،[29] فهنا حذف؛ إذ لم يذكر ما يخصِّص ظلمهم من مفعول به، أو جارّ، ومجرور، ولعلَّ الفائدة من ذلك التَّعميم، ليكون ظلمهم عامًّا يشمل الظُّلم بمعنى الشِّرك، ويشمل ظلمهم أنفسهم، وظلمهم لنبيِّهم بعدم تصديقه، وإساءة القول والفعل معه، وظلمهم للمؤمنين.

والمعنى: فإذا اعتدلت أنت، والمؤمنون على السَّفينة راكبين عالينَ، فقل: الحمد لله الذي نجانا من القوم المشركين،[30] وهنا قد لايبدو دعاء، إلَّا أنَّ حمد الله، والثناء عليه وذكر آلائه من دعائه سبحانه، فإنَّ الله أمره بأن يقول: (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)، ولا شكَّ أنَّه قاله، واشتمل هذا الدُّعاء على الثَّناء على الله، وذكر نعمه الجزيلة متمثِّلةً في إنجائه من القوم الظَّالمين.

قال الله تعالى:﴿وَقُلْ رَبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾،[31] والمنزل هنا إمَّا اسم مكان من النُّزول على قراءة من فتح الميم، أو مصدر (نزلَ)على قراءة الضَّمِّ،[32] وهنا حذف في قوله: (مُبَارَكًا)، لأنَّ هذا اللَّفظ صفة مفعول من (بارك) الذي يتعدَّى بـ (في)، فهو يتعدَّى –مثله– بـ (في)، وقد يتعدَّى بـ (على)؛ ففي الحديث (... حمدًا كثيرًا طيِّبًا مباركًا فيه)[33] أو بـ

(25) ابن مالك، محمَّد بن عبد الله(2015م) دار عمَّار، مصر، ط1، دار الهداية، الغرب، ص (33).
(26) سورة المؤمنون، الآية(26).
(27) ابن منظور، لسان العرب، مادَّة (ن ص ر) مرجع سابق.
(28) سورة المؤمنون، الآية (97).
(29) سورة المؤمنون، الآية (28).
(30) الطَّبريُّ، محمَّد بن جرير(1994م) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق: معروف، بشَّار عوَّاد، والحرستاني، ط1، ج5، عصام فارس، مؤسَّسة الرِّسالة، بيروت، لبنان، ص361.
(31) سورة المؤمنون، الآية(29).
(32) ابن الجوزيّ، عبد الرَّحمن بن عليّ بن محمَّد(د.ت) زاد المسير في علم التَّفسير، تحقيق: عبد الله، محمَّد بن عبد الرَّحمن، ط1، ج5، دار الفكر، بيروت، لبنان، ص321.
(33) البخاري، محمَّد بن إسماعيل(2015م) الجامع الصَّحيح، ط1، دار السَّلف الصَّالح، القاهرة، ص766.

(على) كمافي قول الله تعالى: ﴿وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ﴾[34]، كما أنَّ بناء صفة المفعول نفسه لا يخلو من حذف؛ إذ إنَّها مشتقَّة من الفعل المبني لما لم يُسمَّ فاعلُه، وفي ذلك حذف للفاعل؛ ولعلَّ الغرض من الحذف هنا كون المحذوف معلومًا في الموضعين، ومن الحذف في هذه الآية حذف الهمزة من (خير)؛ فأصلها (أخير)؛ إذ إنَّها صفة تفضيل على صيغة (أفعل)، وممَّا هو شائع في كلام العرب حذف الهمزة في صفة التَّفضيل في (أخير، وأشرّ)، وهناك حذف رابع في هذه الآية، وهو حذف مفعول (المنزلين) لأنَّه مشتقٌّ من (أنزل) المتعدِّي لمفعول به، ولعلَّ الغرض من الحذف هنا إفادة التَّعميم؛ ليشمل كلَّ منزَل، وكلَّ منزِل؛ إذ لو ذكر المنزَل لخصَّص به الإسناد، وضيَّق دائرته، ولكن أكسب هذا الحذف الدَّلالة النَّحويَّة وظيفةً مهمَّة تناسب المعنى المراد.

قال تعالى: (وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا)، وهنا حذف للموصوف؛ لأنَّ ديَّارًا صفة، يغني ذكرها عن ذكر الموصوف بها، ثمَّ إنَّ حذفها أنسب في إرادة العموم،أي: لا تترك على وجه الأرض ممَّن على ملَّة الكفر أحدًا ممَّن يسكن دارًا.[35]

المحور الثَّاني: الفصل والوصل ودلالاتهما في دعاء نوح في القرآن الكريم:

مبحث الفصل، والوصل من المباحث الأسلوبيَّة الدَّلاليَّة المهمَّة والسِّياق هو الذي يحكم بالفصل، وهو ترك عطف بالجمل على بعضها بالواو، أو الوصل، وهو عطفها على بعضها بالواو، وتقتضي البلاغة الوصل عندما يكون هناك جامع بين الجملتين، وتقتضي الفصل عندما لا يكون ثَمَّ جامع بينهما[36]، وقد جاءت الدَّلالة النَّحويَّة مبنيَّة على الفصل، والوصل في دعاء نوح في القرآن الكريم؛ فقال الله تعالى: ﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾،[37] وظنَّ نوح (عليه السَّلام) أنَّ ولده داخل فيما وعده الله بإنجائه من أهله؛ لفرط شفقته عليه، ومع ذلك احتاط باستدراك خفيٍّ في قوله (وأنت أحكم الحاكمين)،[38] وقد وصل بين جملتي: (رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي)، وَ(إِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ)، ثمَّ وصل بينهما، وبين الجملة التي تليهما، وهي (أَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ)؛ لكمال التَّرابط بين هذه الجُمل الثلاث؛ لكون كلِّ واحدة منها تستدعي الأخريين؛ فوصل جملة (إنَّ وعدك الحقّ) بما قبلها استلزمه ارتباطها الوثيق بالجملة الأولى؛ لأنَّ نوحًا لمَّا ذكر انتماء ابنه إليه، وتعلُّقه به أثنى على الله بأنَّ وعده هو الحقّ؛ إشارة إلى ما وعده الله به من إنجاء أهله، ثمَّ أثنى على الله بأنَّه أحكم الحاكمين، فكأنَّه يقول: إنَّ هذه الحكمة البالغة تقتضي أن تنجز ما وعدتَ به، ولكن كمال الأدب مع الله هو الذي اقتضى عدم التَّصريح بذلك، والاكتفاء بالإشارة إليه، مع أنَّ مقام الدُّعاء مقام تطويل لحلاوة مناجاة المحبوب، لكن التَّلذُّذ بذكر المحبوب حظُّ النَّفس، مع كونه عبادةً، والأدب حقُّ الرَّب؛ فهو عبادة أعظم، والله أعلم.

ومن مواضع الوصل قوله: (قُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا)، فقد وصلها بقوله: (أَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ)؛ لتمام المناسبة بينهما؛ إذ إنَّ الجملة الثانية سبب للجملة الأولى؛ فكون الرَّبّ سبحانه وتعالى خير المنزلين سبب يقتضي دعاء نوح له أن ينزله منزلًا مباركًا، وممَّا يرشد إلى أولوية الوصل بين هاتين الجملتين عدم وجود ما يعكِّر صفوه من علامات الوقف في المصحف؛ وهذا يعضِّد أنَّ الأنسب هو الوصل؛ والقارئ الحاذق ينبغي أن يتنبَّه إلى مثل هذا حتَّى لا يقلِّل من التَّرابط الدَّلاليّ،

(34) سورة الصَّافَّات، الآية(113).

(35) ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم(1978م) تحقيق: صقر، السيّد أحمد، دار الكتب العلميَّة، بيروت، لبنان، ص 488.

(36) القزوينيُّ، محمَّد بن عبد الرَّحمن(2003م) الإيضاح في علوم البلاغة (المعاني، والبيان، والبديع)، ط1، دار الكتب العلميَّة، لبنان، ص118.

(37) سورة هود، الآية(45).

(38) السَّعديّ، عبد الرَّحمن بن ناصر(1987م) تيسير الكريم الرَّحمن في تفسير كلام المنَّان، ج3، مركز صالح بن صالح الثَّقافيّ، العنيزة، المملكة العربيَّة السَّعوديَّة، ، ص427.

والتَّناسق السِّياقيّ بين آيات القرآن الكريم، فإن لم تكن لديه القدرة على تمييز ما يحسن وصله ممَّا يحسن فصله فالأولى أن يلتزم بعلامات المصحف ما استطاع؛ فالأخطاء في هذا الجانب أدنى درجاتها نقص المعنى، وأعلاها إتلافه.

وممَّا اقتضى الموقف وصله في دعاء نوح: ﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾[39] أي: كلمَّا دعوتهم لما يكون سببًا في المغفرة أغلقوا آذانهم حتَّى لا يسمعوا الحقَّ، وتغطَّوا بثيابهم؛ حتَّى لا ينظروا إليَّ؛ كراهةً له، ويجوز أن يكون هذا التَّعبير كناية عن المبالغة في الإعراض، وعبَّر بـ (كلَّما)؛ لتكراره الدعوات؛[40] والأولى حمل ذلك على الحقيقة؛ فذلك الأصل، مع عدم استبعاد الكناية، ومناسبة الوصل تكمن في أنَّ الجملتين الموصول بينهما من جنس واحد؛ فكلاهما جملتان خبريتان تدلَّان على معنى الإعراض من جهة التَّعبير الحقيقيّ، أو الكنائيّ.

يقول: ﴿ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾،[41] ولا يخفى أنّ من دواعي الوصل بين جملتي: (إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ)، وَ (أَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا) تمام التَّناسق بينهما؛ فبينهما مقابلة يقتضيها مقام التبيين، كما أنَّ بينهما ارتباطًا دلاليًّا ظاهرًا؛ فكلاهما من وسائل الدّعوة، والإعلام، والجمع بينهما أوقع في نفس المدعو؛ مراعاةً لاختلاف أحوال النَّاس؛ فمنهم من يناسبه الإعلان، ومنهم من يناسبه الإسرار، فبين الجملتين ارتباط وثيق؛ حتَّى إنَّ المسند إليه فيهما واحد؛ فالمعلِنُ هو المسِرُّ نفسُه.

قال تعالى:﴿ قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾،[42] لمَّا يأس نوح من إيمانهم اشتكاهم إلى الله تعالى بهذا الدُّعاء، وذكر أنَّ ما رزقهم الله من المال، والولد لم يزدهم إلَّا خُسرانًا؛[43] وأيّ خسارة أكبر، وأوضح من اختيار الباطل، والإعراض عن الحقّ؟!

وهنا وصل بين جملتي: (عصوني)، و(اتَّبعُوا)؛ لما بينهما من خصوص، وعموم، فالأولى عامَّة، والثَّانية خاصَّة؛ إذ إنَّ اتباع من لم يزده ماله، وولده إلَّا خسارًا من جنس العصيان، ولكن نُصَّ عليه؛ لأهميته.

يقول:﴿ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾،[44] فهنا وصل جملة (لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ) بجملة (لَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا)؛ لما بينهما من تعلُّق؛ فالجملة الثَّانية فيها بيان لما جاء مجملًا في الأولى؛ وهذاتفصيل، وتأكيد للجملة الأولى؛ فاقتضى ذلك الوصل؛ فالوصل يفيد أنَّ ما جاء مفصَّلًا هاهنا هو عين ما جاء مجملًا في الجملة الأولى، ولو وقع الفصل بينهما لظُنَّ أنَّ هذه جملة مستقلَّة في الدَّلالة، وينبني على ذلك أن (ودًّا، وسواعًا، ويغوث، ويعوق،ونسرًا) ليست من جنس الآلهة التي أُشير إليها مجملًا في الآية السَّابقة، لكن من يدرك أساليب العربيَّة في التَّوكيد، وأنَّ منها عطف الخاصّ على العام يدرك قيمة الوصل الدَّلاليَّة في الآية.

يقول: ﴿ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾،[45] قيل: إنَّ جملة (وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا)

(39) سورة نوح، الآية (7).
(40) أبو حيَّان، البحر المحيط، ، ص281-282.
(41) سورة نوح، الآية (9).
(42) سورة نوح، الآية (21).
(43) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز، ص375.
(44) سورة نوح، الآية (23).
(45) سورة نوح، الآية (24).

من كلام نوح، وقيل: من كلام الله،[46] والوصل بين هاتين الجملتين يرجّح أنَّ كلتيهما من كلام نوح (عليه السَّلام)، أي: أضلَّ الرُّؤساء المتبوعون كثيرًا من أتباعهم، وعامَّتهم، وقيل: إنَّ الضَّمير في (أَضَلُّوا) يعود إلى الأصنام،[47] تنزيلًا لها منزلة العاقل على حدِّ زعم عُبَّادها، ولعلَّ الأظهر أنَّ الضَّمير ينوب عن قوم نوح؛ فالأولى حمل الكلام على ظاهر دلالته ما لم يُوجد مانع من ذلك، ولا يُشترط التَّناسب بين الجملتين إنشاء، وإخبارًا حتَّى يتأتَّى عطف إحداهما على الأخرى[48] ثمَّ يدعو على قومه بألَّا يزيدهم الله إلَّا ضلالًا، أي: ضياعًا، وهلاكًا، وعذابًا، وخُسرانًا، فهذه الدَّلالات كلُّها ممَّا فُسِّر به الضَّلال، ولا تعارض بينها، فالأجود أن يُحمل اللَّفظ عليها جميعًا، والدّلالة النَّحويَّة المستقاة من وصل العام بالخاص إبراز أهميَّة الخاص، ومزيَّته.

يقول: ﴿إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾،[49] أي: يكون جزاء إمهالك لهم أن يضلُّوا عبادك،ويزيدوا عدد أهل الفجور، والكفر،[50] وهناك مناسبة واضحة بين هاتين الجملتين: (يُضِلُّوا عِبَادَكَ) وَ (لَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا)؛ فكلاهما من جنس الإفساد في الأرض، وتمكين الباطل، وأهله؛ فاقتضى هذا التَّرابط بينهما الوصل، وجعل له على الفصل مزيَّةً.

ويدعو نوح قائلًا: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾،[51] لمَّا دعا على الكفَّار كان من المناسب أن يدعو للمؤمنين؛ إذ أخلى السَّاحة من أهل الشَّر، ويريد أن يحلِّيَها بأهل الخير، فبدأ بالدُّعاء لنفسه التي هي أولى، ثمَّ والديه، ثمَّ من دخل بيته؛ أي مسجده، أو شريعته، أو سفينته، أو داره، ثمَّ سائر المؤمنين، والتَّبار هو الهلاك،[52] وهنا وصل بين جملة (رَبِّ اغْفِرْ لِي)، و(لَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا)؛ ولذلك مرجّحات، منها أنَّ كلتا الجملتين إنشائيَّة دعائيَّة، ثمَّ إنَّ من أساليب القرآن المعهودة الجمع بين الأمر، وضدِّه؛ فلمَّا جاء الدُّعاء على الكافرين ناسب أن يُؤتى بجملة موصولة بما قبلها يكون فيها دعاء للمؤمنين، ويربط بين الجملتين أنَّهما دعاء بالخير، للمؤمنين، كما يربط بينهما أسلوب المقابلة الذي يفيد تقرير المعنى، ومقابله، ويبعد الملل عن المتلقِّي، ويجعل النَّفس بين منزلتي الأمل، والحذر؛ فينتج عن ذلك توازن النَّفس.

ومن مواضع الفصل في دعاء نوح في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾، فقد فصل بين (وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي)، (أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ)؛ لما بينهما من انفصال في المعنى؛ فالثَّانية جزاء للأولى، ولو وصل بينهما لتغيَّر المعنى،

(46) حسّونة، عرفات، مختصر (2001) تفسير القرطبيّ، ج4، دار الكتب العلميَّة، ، بيروت، لبنان، ص395.

(47) أبو حيّان، البحر المحيط، مرجع سابق، ص287.

(48) المرجع السَّابق نفسه، والصَّفحة نفسها.

(49) سورة نوح، الآية(27).

(50) ابن النَّحاس، أحمد بن محمَّد(2009م) إعراب القرآن، تحقيق: إبراهيم، عبد المنعم خليل، ط3، ج5، دار الكتب العلميَّة، بيروت، لبنان، ص 30.

(51) سورة نوح، الآية (28).

(52) أبو حيّان، البحر المحيط، مرجع سابق، ص288-289.

وصار التَّركيب ناقصًا؛ لاحتياجه إلى جواب للشَّرط.

المحور الثَّالث- عناصر التَّوسع في بناء الجملة:

المقصود بعناصر التَّوسُّع ما زاد على طرفي الإسناد من عناصر لتضييق دائرة الإسناد، وتقييده، كالمفعولات، وأدوات الجرّ، ومجروراتها، ونحو ذلك ممَّاه يدعوه النَّحويون بالفضلة، ولا يدخل في ذلك المعطوف على أحد طرفي الإسناد؛ إذ إنَّ للمعطوف حكمَ المعطوف عليه، وسنتناول فيما يأتي عناصر التَّوسُّع في كلٍّ من الجملة الاسميَّة، والفعليَّة، ووظائف هذه العناصر التَّركيبيَّة، وتأثيرها في بلورة الدّلالة النَّحويَّة.

أولًا- عناصر التَّوسُّع في الجملة الاسميَّة في دعاء نوح:

ينبنيهذا التَّحليل على نظريَّة الإسناد؛ لوضوح عناصرها، ودقة تحديدها لعناصر الجملة، ووظائفها، ودلالة الجملة الاسميَّة ثبوت الحكم المسند على المسند إليه، ودوامه، واستمراره.(53)

قال تعالى: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾.(54)

فهنا ثلاث جمل اسميَّة، الأولى- (ابني من أهلي)، والمسند فيها أداة الجرّ، مع مجرورها (من أهلي)، والمسند إليه (ابني)، ودخلت أداة التَّوكيد فيها لتقوية المعنى، وتقريره، والثَّانية- (وعدك الحقُّ)، والمسند فيها (الحقُّ)، والمسند إليه (وعدك)، ودخلت عليها أداة التَّوكيد؛ للتَّقرير، والجزم بما وعد به الله، والجملة الثَّالثة- (أنت أحكم الحاكمين)، والمسند فيها (أحكم الحاكمين)، والمسند إليه (أنت)، ولم يجرِ فيها توسُّع مستقلّ، لكن فيها توسُّع تابع لتوسّع الجملتين قبلها؛ فهي معطوفة عليهما، ولها حكمهما، وأمَّا المضاف إليه فلا يُعدُّ من عناصر التَّوسُّع؛ لأنَّ المضاف، والمضاف إليه بمنزلة الكلمة الواحدة.

قال تعالى:﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.(55)

هذه جملة اسميَّة احتوت على جملة فعليَّة، فالجملة الاسميَّة (إنِّي أعوذ)، والفعليَّة (أعوذ)، والمسند هو جملة (أعوذ) بما فيها من فعل، وفاعل، والمسند إليه هو الضَّمير في (إنِّي)، وفيها من عناصر التَّوسُّع (إنَّ)، ووظيفتها تقرير المعنى، وتأكيده، ومن عناصر التَّوسُّع أداة الجرّ، والضَّمير الدَّاخلة عليه (بك)، وهذا التَّوسُّع بالجارّ، والمجرور وظيفته تحديد الإسناد بما لا يتجاوزه؛ إذ إنَّ الاستعاذة عبادة، والعبادة توجَّهلله وحده، فإن لم يُؤتَ بأداة الجرّ، ومدخولها لم تكن مقصورة على الله، وأمَّا توسُّع الإسناد بالمفعول به (ما) فوظيفته تحديد المستعاذ منه؛ لأنَّ نوحًا أراد أن يستعيذ من أمر محدَّد، وليست استعاذة عامَّة فكان هذا التَّوسُّع في بناء الجملة محدِّدًا للمستعاذ به، والمستعاذ منه، وقد جاء المسند هنا جملة فعليَّة (أعوذ)؛ لإفادة معنى متجدِّد، ولم يرد أن يعبِّر عن دوام تلبُّسه بصفة الاستعاذة.

قال تعالى: ﴿ فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.(56)

الجملة الاسميَّة في هذا الدُّعاء هي (الحمد لله الذي نجَّانا من القوم الظَّالمين)، والمسند فيها هو (لله) المكوَّن من أداة الجرّ، ومدخولها، والمسند إليه هو (الحمدُ)، وعبَّر بالجملة الاسميَّة هنا؛ لكون الحمد ثابتًا، ومستقرًّا،

(53) قدّور، أحمد محمّد(1999م) مبادئ اللّسانيات، ط2، دار الفكر، دمشق، ص (218).

(54) سورة هود، الآية (45).

(55) سورة هود، الآية (47).

(56) سورة المؤمنون، الآية (28).

ومستَحَقًّا لله سبحانه، ثمَّ وسَّع الجملة بعنصر الصِّفة (الذي)، ونرى أنَّ الغرض من هذا التَّوسُّع مدح الله سبحانه، وذكره، والاعتراف بنعمته العظيمة المتمثِّلة في إنجاء عباده المؤمنين من القوم الظَّالمين، وأمَّا جملة (نجَّى) فاقتضاها استعمال ضمير الموصول (57) (الذي)، والمفعول به (نا) هنا يخصِّص الذي أدركتهالنَّجاة، وأمَّا أداة الجرِّ، ومجرورها (من القوم) فاقتضاه خصوصيَّة النَّجاة لأنَّها نجاة خاصَّة، وأمَّا الصِّفة (الظَّالمين) فالتَّوسُّع بها ضروري؛ فلولاها لشمل النَّجاة من النَّاس كلِّهم، وهذا غير مراد كما هو بادٍ، والجملة بأسرها مفعول به؛ لأنَّها مقول القول.

قال الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾.(58)

والمسند فيهذه الجملة جملة (دعوتُ) بفعلها، وفاعلها، والمسند إليه هو الضَّمير في (إنِّي)، ومن عناصر التَّوسُّع فيها (إنَّ) المؤكِّدة، والمفعول به (قومي)، ووظيفته تخصيص الإسناد بتحديد من وقع عليه الفعل، ومن عناصر التَّوسُّع فيها المفعول فيه (ليلًا، ونهارًا)، ووظيفته تحديد زمان وقوع الحدث؛ أي: أي لم يقطع الدَّعوة في ليلٍ، ولا نهارٍ.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا﴾.(59)

وطرفا الإسناد في هذه الجملة هما الضمير (ياء المتكلِّم) في (إنِّي)، وهو المسند إليه، والمسند هو جملة (دعوتُ) بطرفي إسنادها، وجاء التَّوسُّع في هذه الجملة بعنصر المفعول به، وهو الضَّمير الهاء في (دعوتهم)، ووظيفته تقييد الإسناد بذكر من وقع عليه، ولمَّا كانت الهاء لا تدلُّ على العدد أتى بالميم؛ لتدلَّ على العدد إلى جانب العاقليَّة؛ فهي تدلُّ على أنَّ المفعول به عاقل، وتدلُّ على النَّوع (التَّذكير)، ولكنَّه وقع هنا على سبيل التَّغليب؛ فهو لم يدعُ الرِّجال فقط، ولكن من سنن العربيَّة تغليب جانب التَّذكير فيما اشتمل على التَّذكير، والتَّأنيث؛ ولهذا غالب الخطاب القرآني يُوجَّه إلى الذكور، فيكون الخطاب للذّكور أصالةً، وللإناث تبعًا.

ومن عناصر التَّوسّع هنا نائب المفعول المطلق (جهارًا)، فجهار صفة للمفعول المطلق نائبة عنه، وليس بعيدًا أن يُقال: إنَّه حال مؤوَّل بصفة مشتقة تقديرها (مجاهِرًا)،فعلى التَّأويل الأوَّل تكون وظيفة (جهارًا) التَّوكيد، وبيان نوع الدُّعاء، وعلى اختيار أنَّه حال فتكون وظيفته حينئذٍ بيان هيئة المسند إليه في جملة (دعوت)؛ لأنَّ صاحب الحال تاء المتكلِّم.

ثانيًـــا- عناصـــر التَّوسُّـــع في الجملـــة الفعليَّـــة في دعاء نوح:

يُعبَّر بالجملة الفعليَّة عن المعاني التي لها صفة الانقطاع، والتَّجدُّد،(60)وقد اشتمل دعاء نوح على جُمل فعليَّة أكثر من الجمل الاسميَّة، وتوسَّعت الجملة الفعليَّة البسيطة في دعائه بعناصر مختلفة؛ لأداء وظائف مختلفة، وهو ما سنوضِّحه فيما يأتي:

قال تعالى: ﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ (61) الجملة الفعليَّة في هذه الآية هي الجملة الدُّعائيَّة المفتتحة بالنِّداء (رَبِّ)، والمسند فيها محذوف يُقدَّر بـ (ادعو)، ويُحذف وجوبًا؛ لإنابة أداة النِّداء منابه، والمسند إليه هو ضمير مستتر وجوبًا مع الفعل المحذوف تقديره (أنا)، وتوسَّعت هذه الجملة ببعض العناصر مثل: المنادى، ووظيفته الدّلالة على أسلوب النِّداء، وغرضه الدُّعاء.

وقال الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾،(62) وقد اشتملت هذه الآية على أكثر من جملة فعليَّة، فالأولى- جملة (أعوذ)، والمسند فيها (أعوذ)، والمسند إليه ضمير مستتر وجوبًا (أنا)، وعناصر التَّوسُّع فيها هي: أداة

(57) يُسمَّى عند النُّحاة اسم الموصول، ولكن بعض اللُّغويين المحدثين أدرجوه في طائفة الضَّمائر، ومنهم تمّام حسّان في كتابه: (اللُّغة العربيَّة: معناها ومبناها).

(58) سورة نوح، الآية (5).

(59) سورة نوح، الآية (8).

(60) قدّور، مبادئ اللّسانيات، مرجع سابق، ص (2189.

(61) سورة نوح، الآية (45).

(62) سورة هود، الآية (47).

الجرّ، ومدخولها؛ ووظيفتها إكمال معنى الفعل؛ إذ إنَّ (أعوذ) لا يتعدّى بنفسه، وإنَّما يتعدَّى بوساطة حرف الجرّ، ثمَّ إنَّ هذه الاستعاذة منصرفة إلى الله وحده؛ لأنَّها عبادة، فإن لم يقيَّد هذا الإسناد لما تحقَّق توحيد المستعاذ به، وكان الأمر المستعاذ منه محدَّدًا؛ فوجب أن يقيَّد الإسناد بما يدلُّ على تحديد المستعاذ منه، ولا يتأتى ذلك إلَّا بذكر حرف المصدريَّة والفعل بعده، وهذا فتح الباب لجملة أخرى، وهي جملة (أسألك)، والمسند فيها (أسأل)، والمسند إليه الضَّمير المستتر وجوبًا (أنا)، واقتضت الدَّلالة المرومة أن تتوسَّع هذه الجملة الفرعيَّة بعناصر وهي: المفعول به (ما)، ثمَّ إنَّ (ما) تحتاج إلى جملة تزيلإبهامها، وهي جملة صلة الموصول (ليس لي به علم) بما فيها من توسُّع بالجارَّين، والمجرورين.

ثمَّ عطف على هذه الجملة جملة ﴿ إِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾، وعناصر التَّوسُّع في هذه الجملة أداة الشَّرط، ووظيفتها تعليق الجملة الثَّانية بالأولى، ومن عناصر التَّوسّع (لا)، ووظيفتها سلب حكم المسند، وفيها جملتان معطوفتان على الأولى، أمَّا الأساسيَّة فجملة (تغفر)، وهي مكوَّنة من المسند (تغفر)، والمسند إليه الضمير المستتر وجوبًا (أنت)، وقد توسَّعت الجملة بأداة الجر، ومجرورها (لي)، والجملة المعطوفة عليها جملة (ترحمني)، وركناها (ترحم)، وهو مسند، والمسند إليه الضّمير المستتر وجوبًا (أنت)، ومن عناصر التَّوسُّع فيها المفعول به (ياء المتكلّم)؛ لأجل تقييد الإسناد بذكر من يقع عليه، أمَّا جملة (أكن من الخاسرين) فإنَّما اقتضاها استعمال أسلوب الشَّرط؛ لأنَّها جواب الشَّرط (لا تغفر).

قال الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾،[63] وفي هذه الآية جملتان فعليتان، أمَّا الأولى فالجملة النِّدائيَّة، والجملة الفعليَّة الثانية فيها هي (انصرني)، والمسند فيها (انصرْ)، والمسند إليه هو ضمير مستتر وجوبًا تقديره (أنت)، ومن عناصر التَّوسُّع فيها أداة الجرّ الدَّالة على التَّعليل، والمجرور بها، وقد توسَّعت بجملة أخرى، وهي (كذَّبون) التي فرضها استعمال أداة المصدريَّة التي تطلب فعلًا مضارعًا في الغالب، والتَّقدير النَّحويُّ:ربّ انصرني بتكذيبهم إيَّاي؛ أي: بسببه.

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، وفي هذه الآية جملة فعليَّة، وهي جملة صلة الموصول (نَجَّانَا)، والمسند فيها (نَجَّى)، والمسند إليه ضمير مستتر جوازًا (هو)، ومن عناصر التَّوسّع في هذه الجملة المفعول به (نَا)، ووظيفته تقييد الإسناد بذكر من وقع عليه، ومنهاأداة الجرّ (من)؛ لأنَّ الفعل (نجَّى) يتعدَّى بوساطتها، ومنها الاسم المجرور (القوم)، ومنها الصِّفة (الظالمين)، ووظيفة أداة الجرّ، ومدخولها تقييد الإسناد بذكر المنجَّى منه، ثمَّ قُيِّد الإسناد بذكر صفة هؤلاء القوم (الظَّالمين)؛ لبيان صفة من دُعيَ بالنَّجاة منهم، وإزالة العموم المفهوم من اسم الجمع (القوم)، ومنها بيان علَّة الحكم، وهي أنَّ الدُّعاء بالنَّجاة من هؤلاء القوم إنَّما كان لسبب، وهو اتِّصافهم بالحكم (الظُّلم)، ومنها التَّعميم، أي النَّجاة من كلِّ من اتَّصف بهذا الوصف (الظُّلم).

قال تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾،[64] الجملة الفعليَّة هي (أَنْزِلْنِي)، والمسند فها (أنزلْ)، والمسند إليه ضميرمستتر وجوبًا تقديره (أنت)، ومن عناصر التَّوسُّع فيها المفعول المطلق (منزلًا)، وصفته (مباركًا)، ووظيفته بيان نوع المسند، وهيئته.

وقال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾[65] والجملة الفعليَّة هنا (دعوتُ)، والمسند فيها (دعا)، والمسند إليه(تاء المتكلِّم) في (دعوت)، وتوسَّعت هذه الجملة بذكر المفعول به، وما أضيف إليه (قومي)، ووظيفته تحديد ما وقع عليه الإسناد، ثمّ إنَّ الإضافة لها وظيفة التَّعريف؛ لأنَّ كلمة (قوم) نكرة، لكنَّها صارت

(63) سورة المؤمنون، الآية(26).

(64) سورة المؤمنون، الآية (29).

(65) سورة نوح، الآية(5).

معرفة بإضافتها إلى الضَّمير، ومن عناصر التَّوسُّع في هذه الجملة المفعول فيه، وهو (ليلًا، ونهارًا).

يقول تعالى: ﴿ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا﴾ (66) الجملة الفعليَّة هنا (يزدهم دعائي)، والمسند فيها (يزيد)، والمسند إليه (دعائي)، وتوسَّع هذا الإسناد بذكر أداة الحصر، والمحصور بها؛لحصر منوقعليهالإسناد.

ويقول تعالى: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾(67) ومن الجمل الفعليّة في هذا الدُعاء هي (دَعَوْتُهُمْ)، والمسند فيها هو (دعا)، والمسند إليه تاء المتكلِّم، وتوسَّعت بذكر المفعول به؛للتَّقييد، وتوسّعت بحرف الجرّ، ومدخوله من المصدر المؤوَّل من أن المقدَّرة بعد أداة الجرِّ، وما دخلت عليه، ووظيفة اللَّام هنا التَّعليل، وأمَّا (أن) المقدَّرة، والفعل بعدها فوظيفتهما المصدريَّة (إفادة معنى المصدر)، وهذا الفعل (تغفر) أساس لبناء جملة جديدة في هذا الدُّعاء، والمسند فيها الفعل (تغفر)، والمسند إليه ضمير مستتر تقديره (أنت)، وقد توسَّعت هذهالجملة بأداة الجرّ، والمجرور بعدها، (لهم)، ومن الجمل الفعليَّة في هذا الدُّعاء (جعلوا)، المسند فيها هو (جعل)، والمسند إليه الواو فيها، ومن عناصر التَّوسُّع فيها المفعول به (أصابعهم)، والجارّ، والمجرور، والمضاف إليه (في آذانهم)، ووظيفة حرف الجرّ، ومدخوله هنا إفادة الظَّرفيَّة، كما توسَّعت هذه الجملة بأسلوب العطف، ووظيفة هذا الأسلوب إشراك المعطوف مع المعطوف عليه، وفي هذا العطف جملة (أَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا)، والمسند فيها (أصرّ)، والمسند إليه الواو، وعنصر التَّوسُّع المفعول المطلق، ووظيفته تأكيد الإسناد.

الخاتمة:

الحمد لله في الختام، والصَّلاة والسَّلام على خير الأنام، وعلى آله وصحبه الكرام. بهذا ينتهي هذا البحث الذي تناول التَّراكيب النَّحويَّة، وخصائصها في دعاء نوح في القرآن الكريم، وتبيَّن مافي ذلك من تنوُّع فيالتَّعبير، وما ينتج عن ذلك من رفد للدَّلالة المعجميَّة من دلالات مستنتجة من وظائف العناصر النَّحويَّة، وقد خرج هذا البحث ببعض النَّتائج.

النتائج:

توصَّل هذا البحث إلى بعض النتائج، وأهمُّها الآتي:

1- من الخصائص التَّركيبيَّة في تركيب نوح للجملة الدُّعائيَّة شيوع الحذف، وندرة الذِّكر، وهذا خلاف ما يتوقعه المرء؛ إذ إنَّ مقام الدُّعاء من المقامات التي تناسب الذِّكر، والإطناب، تلذُّذًا بالمناجاة بإطالة مُدَّتها، وتذلُّلًا،ولكن وُجدت أغراض أخرى جعلت الحذف في بعض المواضع أولى من الذِّكر، ومن أظهر أغراضه كون المحذوف معلومًا، أو كون كمال الأدب يقتضي عددم التَّصريح ببعض الأشياء.

2- محافظته على الرُّتبة النَّحويَّة؛ لعدم وجود ما يستلزم الخروج عنها.

3- توسَّعت جمل دعاء نوح في القرآن توسُّعًا مطردًا فيها جميعًا، ومن صوره التَّوسُّع بالمفردات، والتَّوسُّع بالجُمل.

4- وردت الجُمل الفعليَّة أكثر من الجمل الاسميَّة؛ ولعلَّ ذلك مردُّه إلى أنَّ الحالات التي دعا فيها نوح يغلب عليها جانب الانقطاع، والتَّجدُّد على جانب الثُّبوت، والاستقرار.

5- أكثر الإضمار الوارد في دعاء نوح إمَّا من باب الضمير واجب الاستتار، أو ممَّا لا يستسحن ذكره؛ لأنَّه لو ذُكر لأضعف التَّركيب، ولا غروَ فمقام الدُّعاء الأجود فيه الإظهار ما كان له سبيل.

6- شيوع الوصل دون الفصل في دعاء دوح (عليه السَّلام) في القرآن؛ وذلك لما بين الجمل الدُّعائيَّة من ترابط وثيق.

المصادر والمراجع:

- **القرآن الكريم**

(66) سورة نوح، الآية (6).

(67) سورة نوح، الآية(7).

1. الجرجانيُّ، عبد القاهر بن عبد الرَّحمن(2001م) دلائل الإعجاز في علم المعاني، تحقيق: هنداوي، عبد الحميد، ط1، دار الكتب العلميَّة، لبنان.
2. القزوينيّ، محمَّد بن عبد الرَّحمن(د.ت) الإيضاح في علوم البلاغة (المعاني والبيان والبديع)، دار الكتب العلميَّة، بيروت، لبنان.
3. ابن منظور، محمَّد بن مكرم الأنصاريّ(2009م) لسان العرب، تحقيق: عامر أحمد حيدر، دار الكتب العلميَّة، بيروت، لبنان.
4. الرَّازيُّ، محمَّد بن عمر(1994م) التَّفسير الكبير، دار الفكر للطباعة، والنَّشر، والتَّوزيع، بيروت، لبنان.
5. الأنصاريّ، ابن هشام(1998م) مغني اللَّبيب عن كتب الأعاريب، ط1، دار الفكر للطِّباعة، والنَّشر، والتَّوزيع، بيروت، لبنان.
6. الحمد، علي توفيق، والزّعبي، يوسف جميل(1993م) المعجم الوافي في أدوات النَّحو العربيّ، دار الأمل، إربد، الأردن.
7. سنّو، أهيف، وآخرون(2010م) موسوعة مصطلحات العلوم النَّحويَّة، مكتبة لبنان ناشرون، ط1، بيروت، لبنان.
8. أبو حيَّان، محمَّد بن يوسف الأندلسيّ(2001م) تفسير البحر المحيط، تحقيق: عبد الموجود، عادل أحمد، وآخرون، ج8، دار الكتب العلميَّة، بيروت، لبنان.
9. ابن عطيَّة، عبد الحقّ بن غالب الأندلسيّ، المحرَّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عبد السَّلام عبد الشَّافي، ط1، ج3، محمَّد، دار الكتب العلميَّة، بيروت، لبنان.
10. ابن مالك، محمَّد بن عبد الله(2015م) دار عمَّار، مصر، ط1، دار الهداية، الغرب.
11. الطَّبريُّ، محمَّد بن جرير(1994م) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق: معروف، بشَّار عوَّاد، والحرستاني، ط1، ج5، عصام فارس، مؤسَّسة الرِّسالة، بيروت، لبنان.
12. ابن الجوزيّ، عبد الرَّحمن بن عليّ بن محمَّد(د.ت) زاد المسير في علم التَّفسير، تحقيق: عبد الله، محمَّد بن عبد الرَّحمن، ط1، ج5، دار الفكر، بيروت، لبنان.
13. البخاري، محمَّد بن إسماعيل(2015م) الجامع الصَّحيح، ط1، دار السَّلف الصَّالح، القاهرة.
14. ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم(1978م) تحقيق: صقر، السيِّد أحمد، دار الكتب العلميَّة، بيروت، لبنان.
15. القزوينيُّ، محمَّد بن عبد الرَّحمن(2003م) الإيضاح في علوم البلاغة (المعاني، والبيان، والبديع)، ط1، دار الكتب العلميَّة، لبنان.
16. السّعديّ، عبد الرَّحمن بن ناصر(1987م) تيسير الكريم الرَّحمن في تفسير كلام المنَّان، ج3، مركز صالح بن صالح الثَّقافيّ، العنيزة، المملكة العربيَّة السَّعوديَّة.
17. حسّونة، عرفات، مختصر(2001) تفسير القرطبيّ، ج4، دار الكتب العلميَّة، ، بيروت، لبنان.
18. ابن النَّحاس، أحمد بن محمَّد(2009م) إعراب القرآن، تحقيق: إبراهيم، عبد المنعم خليل، ط3، ج5، دار الكتب العلميَّة، بيروت، لبنان.
19. قدّور، أحمد محمَّد(1999م) مبادئ اللِّسانيات، ط2، دار الفكر، دمشق.